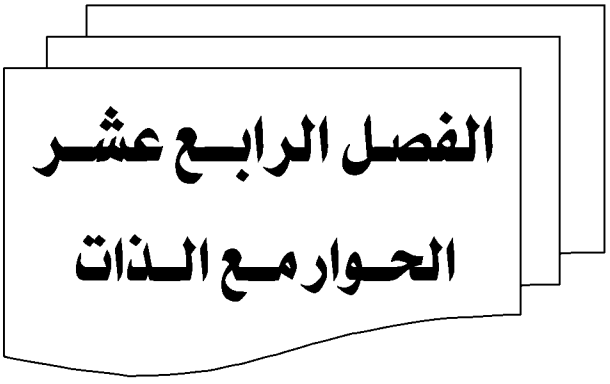
الفصل الرابع عشر
الحوار مع الذات

لقد كُتِبَ على المسلمين بصفة عامة وعلى العرب بصفة خاصة في هذا العصر، أن يظلوا يلهثون خلف الغرب الذي صار يسبقهم في ميادين كثيرة، خصوصًا ميدان الفكر والبحث إلى أن صحونا الآن على الحقيقة المُرَّة، بأننا كعرب وكمسلمين أصبحنا نحتاج الغرب تارة بالنقل عنه أو بالتقليد حتى نعالج كبواتنا ونُعيد الأمور إلى طبيعتها أو حتى نملك الحد الأدنى من صون حقوقنا، ولو لم نكن كما قد وصفنا أنفسنا لما استطاعت الصهيونية اليهودية أن تغزو ليس فقط قدسنا وإنما أيضًا ثقتنا بأنفسنا في اللاوعي، حتى صرنا نُسفه ثقافتنا ونعتدي أحيانًا بالارتجال على القيم والمباديء ونغضب عقيدتنا، لقد أصبحنا مذاهبًا وشيعًا يتخاصمون بقسوة أشد بغضاء أحيانًا من كرههم لأعدائهم الطبيعيين، فما كان النبي محمد "صلى الله عليه وسلم"، شيعيًا أو إسماعيليًا أو درزيًا أو سنيًا أو احباشيًا أو بهائيًا الخ بل كان مسلمًا حنيفًا.

لذا أضحت حاجتنا ماسة إلى خلق أسلوب للحوار مع الذات على قاعدة المقارنة والبحث عن المتشابه في العقائد الأخرى المشتركة لمعرفة دلالات المصطلحات إن وجدت عند الثقافات الأخرى، الكاتب ليس مؤرخًا أو منظرًا أو عالمًا بالأيديولوجيات التي رفعت شعاراتها الأمم في فترات التاريخ المختلفة، إنما هي الحياة ومأساة شعب فلسطين، الذي لا زال جرحه ينزف، ولا يجد العلاج الشافي بل وما جعل الكثيرين منا بدل الدموع يسعون بغضب على أنفسهم إلى التوقف عند الأسباب.

لا شك بأن موضوعًا من هذا العيار الثقيل يحتاج أولاً إلى السمو والصدق والنية الحسنة أثناء معالجته، ذلك لأجل أن شعلة التواصل تتقدم راية الاستمرار في البحث عن الحل من رأي إلى آخر مع الاعتذار مقدمًا لأهل الأديان السماوية الثلاث فيما لو فهمت أمور بغير ما هو مقصود.

بنظرة سريعة على القدس في فلسطين، نجد أن هناك تنافس حدث بشكل أو بآخر في الماضي على تلك المدينة الخالدة، سواء من قبل المسيحيين أو من قبل المسلمين وفي هذا الزمن من قبل اليهود، رأينا كيف أن الصليبيين قد حاولوا

واحتلوا وسادوا في فترات من التاريخ في فلسطين، ورأينا كيف سعى اليهود تحت مظلة رمز الصهيونية (جبل صهيون) في القدس أن يفعلوا مثلما فعل المسيحيون الصليبيون قبلاً في أيامهم، ولم يغب عنا أيضًا ما تُمثل القدس بالنسبة للمسلمين وإنها مسرى النبي محمد، وإلا لما كان الحرص كبيرًا أن يدخلها المسلمون بدافع الدين.

من هذه اللمحة التي لا تساوي أكثر من عناوين لثقافات الديانات الثلاث، هل نستطيع أن نقول بإن هناك صهيونية مسيحية لم تمثل كل المسيحيين في العالم، وصهيونية إسلامية ترى أنها الأحق بالقدس، والآن أو منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر وجدت أيضًا الصهيونية اليهودية التي تمكنت بمساعدة الصهيونية المسيحية والرأسمالية أن تفرض وجودها في القدس منذ ما يزيد عن ستين عامًا! ألا يلفت النظر بأن الثلاث صهيونيات التي أشرنا إليها أو لو صح التعبير فالمقصود هنا هو الثلاث قوميات دينية، اليهودية والمسيحية والإسلامية، أليست تعني هذه القوميات مكانًا جغرافيًا واحدًا بحد ذاته هو القدس وأكناف القدس! إذن القدس تعني الجميع.

هل نستنتج مما سبق أن يكون الصراع في النهاية، ليس صراعًا سياسيًا من أجل الحدود، وإنما صراعًا أيديولوجيًا صرفًا بين الصهيونية اليهودية والصهيونية الإسلامية الأصولية أو كما يشير "هشام بوكرين" مؤسس تيار الصهيونية الإسلامية الأصولية في أحد مقالاته! لو افترضنا أن هشام بوكرين على صواب في التسمية والمعنى، فهل تسميته هي الأرضية التي يجب الانطلاق منها لبناء الإنسان العربي الذي سيُعيد في النهاية الحق في القدس وما حول القدس إلى نصابه! إذا كان الأمر كذلك فربما من الصواب أن نتصفح أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين النشئ اليهودي والنشئ العربي والإسلامي، وذلك للحصول على مقارنة ضمنية قد تجعل بصائرنا تدرك لماذا اختل ميزان القوى بيننا وبينهم في هذا العصر (تربية النشئ).

إن لكل أمة من الأمم كما هو معروف، ثقافة وعادات وتقاليد موروثة تختلف بها أو تتشابه في بعضها مع الثقافات الأخرى، والثقافة اليهودية لا تشذ عن هذا لأن البشر دائمًا في الحياة مع الله سواء كان الإله سماوي أو وثني، فالإنسان يظل شريكًا فيما يحدث سواء بجسده فيما لا خيار له فيه أو بعقله فيما له خيار له علاقة بالسلوك، إذن دعنا نُسلط الضوء على الإنسان اليهودي منذ نشأته، حينما يكون طفلاً، وحتى يُصبح في أرذل العمر!

يقول المبشرون بالإنسان اليهودي، بإن ولادة الطفل اليهودي هي مناسبة سعيدة وحدث جميل لأنه يولد نظيفًا ومحايدًا بشرط أن يكون من أم يهودية، وأن على الوالدين أن يرعيانه ويثقفانه ويعلمانه الأنشطة التي تزيد من مهارته وقدراته، يتوجب ختان الذكر من الأطفال اليهود، ويكون ذلك في اليوم الثامن للولادة، والختان هو عهد الله مع موسى كما ذكرت التوراة، ولا يعتبر الطفل يهوديًا إذا لم يتم ختانه حتى وإن كان من أم يهودية، والختان شيء مقدس حتى أن الختان يصح أن يتم في يوم السبت أو في الأعياد ولا يجب أن يؤخر، عادة ما يكون الختان مناسبة سعيدة عند الأهل فيتم في احتفال الأسرة بحضور الأقارب، وحيث أنها مناسبة سعيدة فإن أحد الأقارب يقوم بحمل الطفل الذي يختن وسط البهجة والسرور والصلوات من الآخرين، ويتناول الحضور بعد ذلك وجبة طعام دسمة، وحفل الختان يكون مناسبة لإعلان اسم المولود أيضًا، اليهود الغربيين "الاشكيناز" يطلقون على المولود اسم أحد أقربائهم المتوفيين تيمنًا لكي تكون حياة المتوفي قدوة للطفل، اليهود السفارديم يطلقون على الطفل اسم أحد الأجداد الذين مازالوا أحياء حتى يكون مرشدًا وموجهًا للطفل، هذا ولا يسمى الطفل باسم أبيه، والميثاق الختاني مع الله ينطبق على الذكور فقط وليس على الإناث، لكن العهد مع الله لا يستثني الإناث، وفي كل الحالات للذكور والإناث يتم الإعلان عن المولود في الكنيس.

يبدأ الطفل اليهودي التعليم في سن مبكرة في العادة ويتوقع منه دراسة التوراة وأمور الديانة اليهودية، وحينما يبلغ الثالثة عشر يعتبر يافعًا وعليه أن يقوم

بجميع الواجبات الدينية كما الكبار فقد أصبح مسئولاً حسب الشريعة، وحينما يبلغ هذه السن فإن متوقع منه أن يقرأ التوراة والصلوات والأدعية أمام الكبار وقد يقود الصلوات الجماعية ويتم ذلك أحيانًا ضمن حفلة سارة قد يتخللها الرقص والغناء، كان نوع هذا الاحتفال يتم في الماضي للذكور فقط، في النصف الثاني من القرن العشرين صار يحتفل أيضًا ببلوغ الإناث، كما أنه كان محظورًا على النساء حضور الصلوات مع الرجال وبعد ذلك صار مسموحًا، ما زالت اليهودية الأرثوذكسية تمنع اختلاط الجنسين في الصلوات وتحرم قراءة الأنثى للتوراة بصوت عالي، لكن يسمح لهن بذلك بطرق أخرى وتُعتبر الفتاة حينما تبلغ الثانية عشرة بالغة كون الأنثى تكتمل أنوثتها مبكرًا قبل الذكر.

الزواج عند اليهود مقدس وبركة واستقرار، وهو ليس للإنجاب فقد ذكر التلمود بأن من لم يكن له زوجة ليس برجل حقيقي، لأن الرجل في هذه الحالة يعيش بلا فرح أو بهجة أو سرور، وبلا توراة وبلا حماية أو سلام، ويقول التلمود أيضًا، إن الرغبة الجنسية ليست عارًا لكنها خطرًا، ولذا يجب أن تنظم من خلال الزواج، وفي الديانة اليهودية من يفشل في الإنجاب بسبب إنكاره للدافع الجنسي فهو كمن أراق الدم وساهم في إخراج حضور الله من إسرائيل.

هذا، وإن تعدد الزوجات مسموح به في الديانة اليهودية إلا أن الشائع هو الزوجة الواحدة كون أن الحاخامات قد منعوا تعدد الزوجات لتلافي انتقاد علماء الدين المسيحي الذين لا يبيحون إلا بزوجة واحدة للرجل، والطلاق مسموح في الديانة اليهودية والرجل هو الذي يطلق ويمكن للزوجة أن تلجأ للمحكمة لطلب الطلاق.

يتم الزواج عند اليهود بعمل عقد زواج وبشاهدين ليس لهما علاقة قرابة بالزوجين، ويكون الزواج باحتفال بسيط يمكن أن يقام في أي مكان وليس بالضرورة أن يكون داخل الكنيس، ويمكن أن يقوم به حاخام أو غير حاخام، وفي العادة يشتمل الحفل على دعائين لحمد الله وشكره على مؤسسة الزواج، يتم "ختم" وتأكيد الصفقة بالرشف المشترك بين الخاطبين من كأس من الخمر كما هي العادة في عدد من الطقوس اليهودية، ويعمل العريس على تقديم وثيقة الزواج

للعروس لكي تضمن حقوقها في حياته أو في مماته، وبعد حفل تبادل الخواتم بين العروسين يتم قراءة عقد الزواج علنًا، هذا ويصح للزوجة اليهودية العمل أو أن تدير الأعمال.

بالنسبة لطهارة المرأة الحائض حسب الديانة اليهودية فهي تُشبه كما عند المسلمين إلى حد ما، وكذلك التعامل بين أفراد الأسرة وخصوصًا معاملة كبار السن، فهناك مقولة مشهورة في التلمود تنسب إلي الحاخام يهودا بن تيما عن سن الإنسان:

في الخامسة (يكون الطفل مستعدًا) لدراسة التوراة.
في الثالثة عشرة (مسؤولية الالتزام) للأوامر والفروض.
في الخامسة عشرة للتلمود.
في الثامنة عشرة للزواج.
في العشرين للكسب.
في الثلاثين لبلوغ أشده.
في الأربعين لبلوغ الفهم.
في الخمسين لإسداء المشورة.
في الستين للعمر المتقدم.
في السبعين لدخول الشيخوخة.
في الثمانين يعكس العمر القوة.
في التسعين للانحناء من جراء ثقل السنين.
في المائة كأن المرء مات وذهب منسحبًا من العالم.

في الديانة اليهودية واجب الإنسان اتباع أوامر الله انطلاقًا من محبته لله، وليس بسبب إغراء الجزاء أو خوف العذاب، وأن الله سيقضي على الموت يومًا ما "سيدمر الموت إلى الأبد"، إن ربي الله سيمسح الدموع عن كل الوجوه (إشعياء ١٥ : ٨"، لا تركز اليهودية على الجنة والنار لأن من واجب الإنسان اتباع أوامر الله وحسب، لقد اختلف حكماء التلمود حول بعض المسائل، وقالوا إن من الأفضل

أن يُكرس الإنسان نفسه لتحسين هذا العالم وتحسين سلوكه فيه، وعند الموت يُلقن الذاهب إلى الموت بعبارة وحدانية الله، وتعتبر الجثة قبل غسلها نجسة ومن يلمسها يعتبر نجسًا، ويجب أن يُغسَّل الميت ويُكفَّن بقماش أبيض بسيط ويُسرع في دفنه، وإن مصاحبة الجثة إلى المثوى الأخير أمر هام عند اليهود.

خلال العبور السريع على أساسيات الثقافة الدينية اليهودية على ما للدين من أثر على السلوك العام في الحياة اليومية للناس، لفت نظري أن اليهودية الأرثوذكسية التي تعتبر أحد مراسي الصهيونية كونها تزرع في النشئ الإسرائيلي بأن اليهودي هو فقط من يولد من أم يهودية، فهي بهذا تزرع العنصرية التي قادت إلى جعل اليهود يتعالون على البشر، ويصبغون كل تمني لهم أو حلم على أنه متصل بالله وهو إرادة إلهية مقدسة لأنهم الأعلون! كما أن حتى التيمن بإعطاء المواليد الجديدة أسماء الأقارب المتوفين أو كبار السن فقط فهو بعينه العمل على إبقاء التميز الذي يصبغونه على أنفسهم من دون خلق الله.

من هنا لا نستبعد أن يأتي الصهاينة بأي شيء في كل يوم وينسبونه إلى الدين وإلى الرب الذي فضَّلهم على العالمين، وعليه فهم لن يكتفوا بما حققوه من احتلال فلسطين، وإنما أطماعهم مجالها الكرة الأرضية كلها، بدء بمن يحيطون بإسرائيل الصهيونية المدللة، أليست إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي تعترف بها الدول العظمى العلمانية رغم أن إسرائيل دولة تقوم على اليهودية المحرفة في زمن تُحارب فيه الدول العظمى جميع الدول التي تحكم بالدين ما عدا إسرائيل التي تبدو أحيانا دينية لا ديمقراطية، أليس هذا مفارقة! وتجاهل لحقوق الإنسان، هل الدول الديمقراطية العظمى تبيح دساتيرها أن تتجاهل فئة معينة من مجتمعاتها وتحرمها من حقوق المواطنة الكاملة! إن إسرائيل تعتبر كل يهودي حتى ولو لم يعش يومًا واحدًا في إسرائيل، وحدث أن قدم إليها ووطأت قدماه أرض المطار في إسرائيل، تعتبره مواطنًا إسرائيليًا ولا يحق طرده من البلاد تحت أي مبرر، في المقابل ليس للفلسطيني المقيم في إسرائيل المولود أصلاً في

فلسطين، ويحمل الجنسية الإسرائيلية، فإن إسرائيل لا تعتبره مواطنًا كامل الأهلية ويحق للدولة إسقاط جنسيته وطرده خارج البلاد في ظروف معينة.

في مقالة بصحيفة الاتحاد الإماراتية للدكتور عبد الوهاب المسيري، قال فيها: "تتسم العقائد الفاشية بإضفاء القداسة لا على أفراد أو جماعات بشرية بعينها فحسب، بل وعلى كل ما يحيط بهؤلاء الأفراد أو تلك الجماعات، وكل ما يَمُتُ إليهم بصلة، بدءًا من الأرض وحدود الدولة وعَلَمَها وزعيمها، وانتهاء بالطعام الذي يتناوله من ينتمي إلى هذه الأرض والزي الذي يرتديه والقبر الذي يُدفن فيه، وتصوراته وأوهامه عن نفسه وعن الآخرين، ويرجع هذا إلى النزعة الحلولية في العقائد الفاشية بوجه عام، إذ يرى الإنسان الفاشي أن الإله يحل في أرض بعينها وشعب بعينه بل ويتوحَّد بهما، مما يخلع القداسة عليهما، وشيئًا فشيئًا يتراجع دور الإله حسب هذا التصور، ويُصبح المصدر المطلق للقداسة هو الأرض والشعب".

كل مولود لأمّ يهودية فهو يهودي، وكل من يتحوَّل إلى الديانة اليهودية بالشكل السليم واستنادًا على عقيدة يهودية صحيحة فهو يهودي أيضًا، و مؤخرًا أصبح يصح تسمية المولود لأب يهودي وأمّ غير يهودية من بعض الطوائف اليهودية يهوديًا إذا ترعرع المولود حسب الضوابط والأعراف اليهودية، ويُعتبر الشخص منهم يهوديًا وإن لم يمارس الطقوس والشعائر اليهودية، وتنطبق التسمية أيضًا على اليهودي الذي لا يعترف بالعقائد اليهودية ويضرب بها عرض الحائط، أما إذا اختار اليهودي ديانة أخرى يعتنقها كالمسيحية أو البوذية أو غيرهما فهذا يخرج عن ملة اليهود ويصبح مرتدًا.

يدعي اليهود أن موسى عليه السلام ألقى التلمود على بني إسرائيل فوق طور سيناء وحفظه عند هارون ثم تلقاه من هارون يوشع ثم إليعازر وهلم جرة، حتى وصل الحاخام يهوذا حيث وضع التلمود بصورته الحالية في القرن الثاني قبل الميلاد، ويُعطي اليهود التلمود أهمية كبرى لدرجة أنهم يعتبرونه الكتاب الثاني

والمصدر الثاني للتشريع حتى أنهم يقولون "إنه من يقرأ التوراة بدون المشنا والجمارة فليس له إله"، والمشناة والجمارة هما جزءا التلمود وكلمة التلمود كلمة عبرية تعني الشريعة الشفوية والتعاليم.

يقول التلمود :

" - إن اليهودي أحب إلى الله من الملائكة، فالذي يصفع اليهودي كمن يصفع العناية الإلهية سواء بسواء.

- اليهودي من جوهر الله كما أن الولد من جوهر أبيه.

- ولولا اليهود لارتفعت البركة من الأرض واحتجبت الشمس وانقطع المطر."

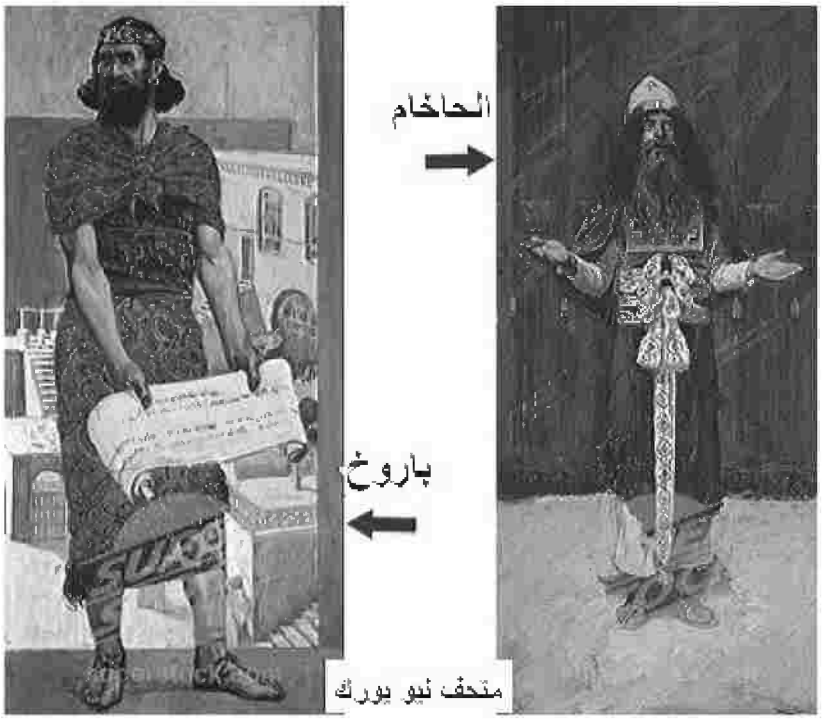

لهذا لا عجب إذا علمنا أن الأصولية اليهودية التي من المفترض أن تكون توحيدية روحية سماوية مُنزَّهة عن العنصرية، نجدها وقد رسخت عند الصهيوني اليهودي كي يظل منعزلاً عن البشر الآخرين بخلط الحلولية والتوحيدية وجعلهما

شيئًا واحدًا، لقد ركزت الصهيونية أكثر على الجانب الحلولي وجعلت مفاهيم مثل شعب الله المختار والأغيار وأرض إسرائيل مُقدسة رغم أنها شئون دنيوية بمعنى أنه لا يجوز التشكيك فيها، وتستمر الحلولية حتى تصل إلى جثث الموتى من اليهود وحتى المدافن التي تخصص لليهود، ومعنى الحلولية هي أن الله يحل في البشر والأشياء فيصبح هؤلاء البشر لهم قدسية وكذلك أشياؤهم، وهذا يعني أنهم أطلقوا على أنفسهم شعب الله المختار، وأن أرض كنعان هي ميراث من الله لهم، وهناك بعض الطقوس التي تجعل الناس يطلبون الغفران من جثة الميت وهو ما ظل اليهود الغربيون "الاشكيناز" يفعلونه حتى سنة ١٨٨٧م، حين أوقفها الحاخام الأكبر في انجلترا، كما أن يهود السفارديم يلقون عملات في الجهات الأربع بوصفها هدية أو رشوة للأرواح الشريرة، ومن الطقوس المميزة لدى يهود ليبيا أنه إذا كانت أرملة الميت حبلى فإنهم يرفعون النعش وتمر الأرملة تحته حتى تُبين أن الميت هو أبو الجنين الذي تحمله، كما أن مدافن الموتى عند اليهود تسمى بيت الأحياء أو بيت الأزلية، ويعتبرون أن المقبرة أكثر قداسة من المكان الذي يعبدون الله فيه، ولزيادة التقديس فإن العلماء والخامات والشخصيات البارزة من اليهود لهم مدافن خاصة لأنهم لا يتساوون مع الآخرين حتى عند الموت.

وجرت العادة خارج فلسطين على أن يُرش على رأس الميت تراب يُؤتى به خصيصًا من فلسطين، كما اهتمت الحكومة الإسرائيلية اهتمامًا بالغًا بنقل رُفات معظم الزعماء الصهاينة فور إعلان دولة "إسرائيل"، حتى تكتمل "قداستهم" في المثوى الأخير على "الأرض المقدسة"! ومن المعروف أنه لا يجوز إخراج جثة اليهودي المدفونة من الأرض إلا لإعادة دفنها في مدافن العائلة أو في أرض "إسرائيل"، ويُقال في التراث الديني الشعبي في التلمود إن جثة الميت خارج فلسطين تزحف تحت الأرض بعد دفنها حتى تصل إلى الأرض المقدّسة وتتوحد معها." (عبد الوهاب المسيري)

وهنا لا يستغرب المرء أن تكون الصهيونية اليهودية بهذا التشريع الديني بجعل الله واليهودي والأرض شيئًا واحدًا، لا نستغرب محاولاتهم على مدى التاريخ للعودة إلى القدس ما دامت جثة اليهودي الميت تزحف تحت الأرض لكي تصل إلى أرض إسرائيل (فلسطين)، إذن المشكلة بين إسرائيل والعرب ليست معارك عسكرية أو هدم بيوت أو طرد الناس من أملاكهم أو مشكلة مهاجرين يهود قادمين من هذه الجهة أو تلك، إنما هي مشكلة اليهودية كديانة وتشريع وكفلسفة.

هل الصهيوني إنسان يعيش في قلق دائم كونه لا يستطيع أن يتعايش مع الآخرين أم إنه يحتقر الآخرين ويتعالى عليهم، فإذا بدا ذليلاً في بعض الظروف إنما لأنه ينظر لمن يذلوه على أنهم لا يعرفون قيمته المقدسة.. هو يظن هكذا! وهو يتخيل نفسه إله أو رب يمهل ولا يهمل، وحينما تتاح له الفرصة فإنه يوقع على الآخرين العقاب لأن عقاب الرب شديد أوَلَيسَ أن الله يحل فيه! اليهودي مسكون بالحلولية! هل اليهودي منذ فجر التاريخ لم يستطع أن يتناغم مع الآخرين، أن يعيش بينهم معزولاً أو أنه يشغل نفسه، يظلمها ولو بإشباعها بمليء الفراغات عن طريق شيء محسوس، باعتبار أن لولا الشعور ما كان إحساس اللاشعور.